أرجوك .. لاتمدحنى!

خبايا المرأة

معًا إلى الأبد فى نعيم الجحيم

أديب يعيش فى جو ملوث بسموم النفاق والتملق . . اختنق . . سلخ جلد ماعز وصنع به حزاما . . واشترى مسامير ودقها عليه . . وكلما سمع كلمة مدح وتقريظ لف الحزام حول خصره حتى تنغرز المسامير فى لحمه . . فينزف ويسيل دم غروره . . ويتواضع ويرى عيوبه .

بعد أن انتهى تولستوى من « الحرب والسلام » قام برحلة فى شمال روسيا . . وأثناء وجوده فى مدينة « ارزاماس » زاره الموت زيارة ودية . قالت فى جلده . . فأعجب الموت برعب هذا الحى منه . وقرر أن يداعبه مدى الحياة . بدغدغة أعصابه . وفكر تولستوى فى كتابة قصة عن بطرس الأكبر . ثم سرعان ما تركها بعد كتابة بضع صفحات منها . . وتحول إلى تلميذ وتعلم اللغة اليونانية . . فارهقت المذاكرة صحته . وانتابته نوبات سعال مصحوبة بنوبات رعب من الموت . فتكلمت الحياة والحبيت له سونيا طفلها الخامس . . فكرهها لا لشىء سوى أنها تحمل الحياة وتلدها فى حين يحمل هو الموت فى أحشائه حسب اعتقاده . . وعاملها ببرود فعاملته بالمثل . وتجمدت علاقاتهما وصارت فى جمود الموت . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

قلق الشفق

ابتسم ربيع بلا ازهار بين أغصان بلا أوراق . . وكما يعرض المنسول أعضاءه المشوهة على المارة . عرض تولستوى وجهه بأحزانه ومخاوفه على سونيا . . فمزقت تنهداته قلبها وروض الدفء البرود . وشربا معا اللازورد . واقنعته بضرورة السفر إلى منطقة سمارا لعلاج نفسه « بالكوميس » كما فعل فى عام ١٨٦٢ . فأسعده قلقها على صحته وسعل سرورا . . وخوفا من أن يتعرض أثناء الطريق لكابوس « ارزاماس » اصطحب معه بالإضافة إلى خادمه ، ستيان ميرز شقيق زوجته .

وأقام فى قرية كراليك مع البدو « البشكير » الذين رحبوا بعودته إليهم بعد غيبة تسع سنوات واستأجر خيمة من الخوخ . أثاثها مكون من سرير من الثنين ومقعد ومتصدة وطبلية . واحترم الرجيم الغذائى المفروض عليه رغم صرامته . . ولم تشهد طبليته لا الخبز ولا الملح ولا الخضراوات ولا التشويات . إنما فقط الخراف المشوية على الحطب و « الكوميس » . . وهو لبن مختمر فى قرب من الجلد تقوم بإعداده نساء البدو من لبن الحجر انثى الفرس . ويقال إن لحم الضأن الصغير الذى لا يتجاوز عمره ستة يرمم الأعصاب المنهارة . ويقوى البصر وحده . وينشط الدورة الدموية . ويمد الجسم بالعافية والحيوية . . وكبده تقوى الكبد . وقلبه يقوى القلب . أما مخه فيأويل من يأكله . يثبلد ذهنه . ويفقد ذاكرته . ويخرف ويصير كالخروف قليل الحس والإدراك . ويقال إن لبن الحجر يفلق الصخر والكرب . ويشق الصدر من الهموم . ويقطع السعال والبلغم . ويقضى على السل والربو . ويزيل آلام المعدة والظهر .

ولم يأكل تولستوى مخ الخروف . وشرب كل يوم ست زجاجات لبن . ولم يرتو قلقه بل ازداد ظمأ . . فكل مساء فى الساعة السادسة أحس بنفس الاختناق الكئيب الذى أحس به فى أرزاماس . . فقد عاد الموت إلى مداعباته السخيفة له ، ودغدغ أعصابه . وليس من العدل فى شىء أن يتعذب وحده فى حين تنعم سونيا بالراحة وهدوء البال . . يجب أن تكتئب وتختنق وتحتضر معه . . وكتب إليها :

« لا أعرف كيف أصف هذا الإحساس . . إنه نوع من الحمى . . قلق جسدى . . لعل أصدق القول وأحسن التعبير إذا قلت ببساطة إننى أحس بأن روحى تنخلع من جسدى . أما عن قلق المعنوى عليك فإننى أمنعه من الظهور . . لا أفكر أبدا لا فيك ولا فى الأطفال . ولا اسمح لنفسى بالتفكير فيكم وإلا عدت إليكم على الفور . . لا أفهم شيئا فى حالتى . . فإما أننى سأصاب بالجنون واما سأموت . عزائى الوحيد أننى التقيت هنا بأستاذ للغة اليونانية ، ادرس معه اللهجات القديمة الدورية والأيونية . . وبفضله استشق عطر هيرودوت فى خيام البدو » .

فردت عليه سونيا بحنق :

« مادمت تصر على مواصلة دراستك للغة اليونانية والتبحر فيها ، فلن تشفى أبدا . . هذه اللغة وأصحابها هم مصدر قلقك ومخاوفك ولا مبالاتك بالحياة الحاضرة . . إن هذه اللغة لم تسم اعتباطا لغة ميتة . . انها تزرع الموت فى النفس فيحصد العقل القلق » .

رمست حكمتها الساذجة أوتار قلبه . فعزف من جديد نشيد الحب . . وكتب إليها يوم ٢٨ يونيه ١٨٧١ : « رسالتك توجعنى أكثر من اللغة اليونانية بالانفعالات التى تثيرها فى . . أقرأ كلماتك فسيل دموعى . ويرتجف بدنى ويتزلزل كيانى ، ويخفق قلبى بجنون . . تكتبين كل ما يخطر على بالك . . وبالنسبة فى فكل كلمة تستخدمينها لها أهميتها . اقرؤها ثم أعيد قراءتها إلى ما لا نهاية . . فى هذه اللحظة احبك إلى حد أننى أحس برغبة فى البكاء .

وخيلتها كلماته فنسيت مأساة جالها وأرسلت له آخر صورة فوتوغرافية لها . . وفيها تبدو صلعاء ، اضطرت إلى حلق رأسها بعد إصابتها بحمى التيفاس . . فلم يخف عنها حيبته الجمالية ، وبصراحته القاسية كتب إليها : « وجدتك فى الصورة عجوزا وهزيلة وكئيبة . . وعادة فى البعد تصدمنا صورة ووجه من نحبه ، فما بالك وأنا لا احبك فحسب بل اعبدك . . إن الخيال دائما يزيف ويزور الواقع . . والواقع دائما يفتقر إلى الكمال ولكن اطمئنى فقد تصالحت مع صورتك » .

ثم شيئا فشيئا تصالح أيضا مع الحياة . . واشترى كليا وحصانا ، واصطاد البط فى السهوب ونط الحبل ، وزار ناسكا يعيش فى كهف ، والتقى أيضا بجماعة دينية تسمى « المولاخان » وتعيش على شرب اللبن . . وتجول مع شقيق سونيا فى القرى المجاورة . . وسمع عن ضيعة مساحتها ٢٥٠٠ هكتار معروضة للبيع . . فانفتحت شهيته للشراء . . فالأرض هنا تباع برخص التراب ، والشمس تعامل البشر بحنان ولا تبخل عليهم بدفء أشعتها ، والحياة البدائية تشق الروح والجسد من أمراض المدنية ، ولبن الحجر يقضى على فيروس القلق الميتافيزيق . . فاشترى الضيعة وما عليها من ماشية تبلغ عشرين ألف روبل . . أى ما يوازى اليوم بتقدنا ٢٤ ألف جنيه مصرى .

سيول الغيظ

وفى أوائل شهر اغسطس عاد الى عزبته وابتسامة العافية ترفرف فوق لحيته . . وحبس نفسه فى مكتبه لتحقيق حلمه الجديد . . حلم تربوى طموح . . تأليف كتاب مدرسى يقرأه أطفال روسيا جيلا بعد جيل سواء كانوا أبناء الامبراطور أو أبناء الفلاحين . . على أن يضم الكتاب قصصا وأساطير من التراث الشعبى العالمى ، وترجمة « خرافات » الحكيم اليونانى ايزوبوس ، وبعض صفحات نموذجية من الأدب العالمى ليلوتارك وهوجو وغيرهما ، وهكذا يملأ الوطن بالحكماء والأبطال والشعراء .

فرقصت سونيا أمام مرآتها ، وتوسلت إلى وجهها أن يشفق عليها . . فقد جرفت سيول الغيظ قسماتها وغطاها جليد اليأس . ومثلما فعلها بالجليد وقطع الطريق على الشكوى والأنين . فلم تعد تر التأوهات والتنهدات من بين شفتيها . . فهو لا يسمعها . . إن الناشرين يطاردونه وعروضهم المغرية تنهال عليه . . إنهم على

ليليات

استعداد لأن يدفعوا له عشرة آلاف روبل مقدما . و ٥٠٠ روبل للصفحة الواحدة من روايته الجديدة . . ولكنه يدير ظهره للأدب ويفضل « كتاب المجاه الجديد » . . وفى روسيا آلاف المدرسين . ولكن تولستوى واحد . . وهو لا يريد أن يفهم ذلك . . فعلقت فى الهواء حبل الأحزان ومشت فوقه . إذا طلب منها أن تخلع عينيها وتمشى بهما فوق أوراقه . وترى أصابعها وتبيض بها مسوداته . فعلت ذلك . . لكنه ليس بحاجة لا إلى نور عينيها ولا إلى أقلام أصابعها . . إنه يحرمها من تحقيق رسالتها فى الحياة : أن تكون زوجة أديب . . يريدها فقط أن تكون أما وأرضا خصبة فأنجبت له طفلها رقم ٦ . . ولدا يسمى بنيا . يوم ١٣ يونيو ١٨٧٢ .

وتولستوى يحب الأطفال ولكن بشرط أن يكونوا كبارا . . وهو نفسه اعترف بذلك حينما كتب :

« لا أحب الطفل إلا بعد أن يبلغ الثانية أو الثالثة من عمره . أما الطفل الرضيع فإننى لا أحبه . لأننى لا أفهمه . وهناك نوعان من الرجال : الصيادون واللاصيادون . . اللاصيادون يحبون الأطفال الرضع ويلاعبونهم . أما الصيادون فإنهم يخافون وينفرون من الطفل الرضيع ويشفقون أيضا عليه ولا أعرف استثناء لهذه القاعدة » .

ومع أطفاله الكبار كان يلعب ويلهو كالأطفال الصغار . . يضع أحد أولاده فى سلة الغسيل ويغطيه بملاءة . ويجره فى كل أنحاء البيت . وكالقطار الفشاش يتوقف به عند كل محطة ويطلب منه أن يخمن أين هو . وإذا تتاءب أطفاله ملأ أثناء الأمسيات العائلية . كان يقفز من مقعده ويحجل فى الحجرة حتى يقهقه الأطفال ويحجلوا وراءه . ومرة فى عيد ميلاد أحد الأطفال ظهر حاو ومعه دب وخروف . وكان الخروف ليون تولستوى . وفى الشتاء كان يترحلق معهم فوق الجليد . وفى الصيف كان يلعب معهم بالكرة . وكل يوم سبت كان يأخذ معهم حمام بخار فى كوخ من الخشب أعد خصيصا لهذا الغرض . ومنع سونيا من أن تشترى لهم أية لعب من السوق لأن اللعب الجاهزة تقتل الخيال . وينبغى على الطفل أن يصنع بنفسه لعبته لينمى خياله . والعقاب البدنى وغير البدنى كان ممنوعا منعا باتا . فالنفوس الصغيرة يجب ألا تذل . . وإذا أخطأ أحد الأطفال . فلا أحد يلومه أو يعاتبه . ويكفى الجميع تعاملته ببرود . فيخره ضميره ويعاقب نفسه بنفسه . ويعترف بذنبه أمام الجميع طالبا العفو .

وكان فى بيو اليت صندوق بريد يضع فيه الكبار والصغار كل ماكتبوه طوال الأسبوع من قصائد شعرية وقصص قصيرة . وخواطر واعترافات . ويوم الأحد كانت تجتمع الأسرة حول نار المدفأة أو فى الحديقة . ويفتح تولستوى الصندوق ويقرأ بصوت عال روائع فكره وفكر أولاده وبناته وزوجته . ولم يكن أحد يوقع باسمه على ماكتبه . . فأسلوبه يكفى . . وفى إطار لعبة صندوق البريد تقرر مرة اجراء تحقيق حول مثاليات سكان « ياسنايا بوليانا » واتضح منه أن مثاليات تولستوى تتلخص فى نقطتين : أولا : الفقر والسلام والوفاق . . وثانيا أن يحرق كل ما أولع به . وأن يولع بكل ما أحرقه . .

أما مثاليات سونيا فتتلخص فى نقطة واحدة : « أن تكون أما مائة وخمسين طفلا لا يكبرون أبدا » . . ثم طلب مرة أخرى من اللاعبين أن يكتبوا قائمة بأسماء المعتوهين فى البيت وأسباب جنونهم . . وجاء فى القائمة . . المريض رقم واحد : ليون تولستوى . . وهو مجنون لأنه يعتقد أنه من الممكن أن يغير بالكلمات حياة الآخرين . والمريض رقم ٢ : سونيا تولستوى . وهى مجنونة لأنها تعتقد أن الجميع بحاجة إليها وإلى خدماتها ومهما تفانت فى خدمتهم فلن ترضى أحدا .

وفى الخريف انتهى تولستوى من « كتاب المجاه الجديد » . . وتذكر مشروع روايته التاريخية . . وعاد إلى بطرس الأكبر وعصره . . وقرأ . . وكتب فى كراسة كل ما يتعلق بعادات وتقاليد وأزياء هذا العصر . وفى أخرى كل ما يتعلق بالقيصر والبلاط الامبراطورى . وفى ثالثة ملامح الشخصيات الرئيسية . وفى رابعة الخطوط العامة لروايته . وكل كتاب يقرأه يغريه بقراءة غيره . . وكلما تعمق فى دراسة هذا العصر ناه فيه . . فلا نهاية للدراسات التحضيرية . . ودار فى دائرة مفرغة وداخ . . وأحب بطرس الأكبر وكرهه . أحبه لأنه قام بالعديد من الإصلاحات الداخلية . . وكرهه لأنه قتل ابنه اليكسيس . ولأنه بنى مدينة سان بطرسبورج وجعلها عاصمة روسيا لا يبعد عن دسائس البلاء . إنما ليتغمس فى الملذات مع رفاقه فى الفساد والانحلال . ولأنه شوه وجه روسيا الأصيل بإرغام الشعب على ارتداء الملابس الأوربية . وبإرغام الأشراف على حلق ذقونهم . . وتولستوى يفخر بلحيته ويعتز بها . . وكتب سبع عشرة مرة الجزء الأول من روايته . ومزقه سبع عشرة مرة . . فى كل مرة يحطم قلمه تمثال بطرس الأكبر وأمجاده تماما . كما فعل من قبل مع نابليون بونابرت فى « الحرب والسلام » . . ولكن نابليون كان عدو روسيا . وبطرس الأكبر فخر الأمة الروسية .

وفجأة اشرقت شمس الالهام . تذكر حادثا وقع فى العام الماضى وتأثر به . . كان جاره وصديقه بيبكوف يعيش منذ سنوات مع امرأة لطيفة ورقيقة تدعى آنا ستيانوفنا بيروجوفا . ورغم حبه لها لم يفكر فى الزواج منها . ثم مال قلبه إلى مربية أطفاله الألمانية . وقرر أن يتزوجها . . فاندلعت نيران الغيرة فى قلب آنا واحرقته وهربت من البيت . وهامت على وجهها فى الغابة ثلاثة أيام ثم ارتمت يأس تحت عجلات قطار للبضائع فى محطة ياسينكى . .

وقبل أن تموت أرسلت إلى عشيقها الخائن هذه الكلمة :

« أنت قاتلى . . إذا أردت أن ترى حتى فهى فى انتظارك فوق قضبان السكة الحديد فى محطة ياسينكى » . . وحدث ذلك يوم ٤ يناير ١٨٧٢ . . وفى اليوم التالى للحادث توجه تولستوى بفضول الرواقى إلى المحطة . وحضر تشريح جثة المنتحرة الذى تم فى غرفة ناظر المحطة وظلت هذه الصورة تطارده فترة من غير أن يفكر فى استغلالها فى رواية . . وكان قبل ذلك بعامين قد فكر جديا فى كتابة رواية عن زوجة خائنة من الطبقة الأرستقراطية . وعندما انتحرت عشيقة جاره لم يربط هذا الحادث بموضوع المرأة الخائنة . ولمدة عام عاشت جنبا إلى جنب فى ذهنه فكرة الخيانة مع فكرة الموت العنيف . . ثم شبتا فشبا ونضجتا للعشرة والحوار تأثرت كل منهما بالأخرى وأثرت كل منهما فى الأخرى . . واعطت بنت الأرض والواقع لبنت الخيال نهايتها المأساوية واسمها . . وضحكت « آنا كارينينا » على ذقن بطرس الأكبر وطردته نهائيا من خيال تولستوى .

وبعد أيام قليلة وتولستوى فى حجرة ابنه سرج . رأى على المنضدة كتابا لبوشكين « قصص بيلكين » . . وتصفحه . . وتوقف عند قصة « أوراق منثورة » . . وقرأ أول عبارة : « وصل الضيوف إلى البيت الريفى . . . » وسحرته هذه الطريقة البسيطة فى الدخول مباشرة فى الموضوع . . إن البساطة . قمة الفن . . ياليت الله يمنحه البساطة . وجرى إلى مكتبه وكتب : « بعد حفل الأوبرا التقى الضيوف فى بيت الكونتسة فراسكى . . . » أول عبارة فى أول فصل « لآنا كارينينا » فى مسودته . . فى النص النهائى وضع هذه العبارة فى أول الفصل السادس من الجزء الثانى .

وفى اليوم التالى . ١٩ مارس ١٨٧٣ . كتبت سونيا إلى اختها تانيا . فجأة تخيل ليون عن بطرس الأكبر . إنه بدأ أمس فى كتابة قصة عن الحياة المعاصرة . . الموضوع : الزوجة الخائنة . . أنا سعيدة جدا جدا جدا » .

مسامير الغرور

وتولستوى كان اسعد منها . . فولادة شخصياته تمت بلا آلام . . وظل قلمه يجرو على الورق بلا توقف تسعة شهور . . ثم تسلل الموت إلى بيته متخذا شكل ميكروب الدفتريا . وخطف منه اصغر أبنائه بنيا (١٤ شهرا ونصفا) . . وتحمل فجيعته برباطة جأش . وترك سونيا تبكى وتئن وتغرق فى أحزانها . . وكتب ببرود إلى أخيه سرج يوم ١٠ نوفمبر : « مات بنيا أمس ودفناه اليوم . . سونيا لا تكف عن البكاء والولولة . . وصلى الآن خطاب من الناشر يخبرنى فيه بأن الطبعة الخاصة التى تضم كل مؤلفاتى سوف تصدر يوم ١٢ من هذا الشهر . . اعتقد أننى يجب أن اسافر إلى موسكو . . ما رأيك لو سافرنا معا بعد غد يوم ١٢ ؟ . . أنتظر ردك » .

هذا هو العظيم الذى يتمزق قلبه لآلام البشرية . . هذا هو العظيم ذو القلب الكبير . . يموت ابنه فينعاه فى كلمتين ، ثم يهتم بأعماله ، ثم يتحجج بها ليهرب من بيته كى لا يسمع تأوهات سونيا الأم الثكلى .

وفى شهر مارس ١٨٧٤ انهى تولستوى من الجزء الأول من روايته ، فأنجبت له سونيا فى شهر ابريل ولدا سمى نيقولا . . فاعتقد تولستوى أن صرخة الحياة سوف تفزع الموت فيهرب بجلده من البيت . . ولكن سرعان ما خاب ظنه . . فى شهر يونيه ماتت عمته توانيت التى كانت تعيش معه فى بيته والتى كانت بمثابة الأم له فهى التى ربته .

وفى شهر فبراير ١٨٧٥ بدأت جريدة « الرسول الروسى » فى نشر الجزء الأول من « آنا كارينينا » . . فزاره الموت فى شهر فبراير وخطف منه نيقولا آخر مولود له . . فانهارت أعصاب سونيا . . واستمر قلمه فى القفز بمرح فوق الورق . فبعد يومين فقط من وفاة ابنه كتب إلى صديقه الشاعر فيت : « سونيا غارقة فى الأحزان من جديد . . أما أنا فأحس برغبة مرحة فى العمل لم أعرفها قط من قبل . . تقول إن « آنا كارينينا » تعجبك بل تعجب كل الناس . . أرجوك لا تمدح روايتى ! . . كان باسكال يلف حول خصره حزاما بمسامير كلما سمع كلمة مدح وراقت له . . وانا بحاجة إلى مثل هذا الحزام . . وإذا كنت صديقى فعلا فلا تكتب إلى تمدح روايتى ، إنما لتبرز لى عيوبها ونقاط ضعفها » .

وأصيب الأطفال بالسعال الديكى . . وانتقلت العدوى إلى سونيا وكانت حاملا فى شهرها الثامن . فأنجبت فى أكتوبر بنتا ماتت بعد نصف ساعة من ولادتها . . وتدهورت صحتها وأصيبت بالتهاب الصفاق . . وبدلا من أن يخفف زوجها ذو القلب الكبير آلامها وأوجاعها وأحزانها لموت ثلاثة من أطفالها خلال الثلاث سنوات ، تبرم منها وتذمر من مرضها . . وكتب بأنانيته الجهنمية إلى أخيه سرج : « أبشع شىء بالنسبة للرجل الذى يتمتع بكامل صحته وعافيته أن تكون زوجته مريضة » .

ورغم عطر الموت الذى يهفهف حوله واصل تولستوى كتابة رائعته . . ونهضت سونيا من فراش المرض وبيضت مسوداته . . وفى خريف ١٨٧٧ كتب تولستوى آخر فصل فى « آنا كارينينا » فأنجبت له سونيا فى ٦ ديسمبر ولدا سمى اندريه .

واختتمت أول طبعة من السوق فى اسبوع . . وتصوف تولستوى . ولكن هذه حكاية يطول شرحها . □